# التربية في الطفولة المبكرة- تعلُّم أم تعليم؟

الندوة العالمية حول

**"التوعية بمرحلة التعليم ما قبل المدرسة"**

**وزارة التربية والتعليم، مسقط، 6- 8- 2008**

**د. نجلاء نصير بشور**

**إذا كان التعلُّم عملية طبيعية كالتنفس،كما تؤكد الأبحاث العلمية الحديثة،**
**فكيف يمكن للبيئة المحيطة أن تسهل أو تعيق هذه العملية؟**
**وإذا كان الطفل كائن اجتماعي محب للاستطلاع والتعلم بطبيعته، ويسعى نشطاً للتعرف على ما حوله، فما دورنا نحن المربين والأهل؟**
**كيف يمكننا أن نعزز تعلم أبنائنا؟**
**وما هي الطريقة الأفضل لتعلُّمهم؟**
**هل هناك فعلاً دور هام لنا يمكن أن يؤثر في هذه العملية؟ سلباً أم إيجاباً؟**

أسئلة كانت دوما تشغل بالنا، مربين وأهل على السواء. لكن الأبحاث العلمية الحديثة ، لاسيما منها أبحاث الدماغ، والتي قام بها علماء الأعصاب في السنوات القليلة الماضية، جاءت لتثبت نظريات في التربية وعلم النفس ولتأكد أن للأهل والمعلمين الدور الأساس في تعزيز أو إعاقة تعلم أبنائهم. ولتلفت إلى أهمية الخبرات الحسية التي يتعرض لها الطفل، من حيث كميتها ونوعيتها إبان مرحلة الطفولة المبكرة في رسم معالم شخصيته ونمو قدراته وتأثيرها الحاسم على أدائه التعليمي والحياتي لاحقا.

إن التحدث عن التعلم و التعليم في الطفولة المبكرة تجعلنا نتوقف أمام مفهومنا لهذه العملية وبالتالي طرفيها الأساسيين الطفل والمعلم، أو حتى الراشد أو الراعي في حياة الطفل. وينطلق هذا المفهوم من نظرتنا إلى الطفل من حيث نمو قدراته وكيفية تعلمه، كما من نظرتنا إلى المدرسة وبالأخص المعلم ودوره في هذه العملية.

**فمن هو هذا الطفل؟ وكيف يتعلم وينمو؟**

**وماذا تقول أبحاث الدماغ ونظريات علم نفس النمو بهذا الصدد؟**

تنطلق هذه الأبحاث والنظريات من كون الطفل كائن اجتماعي محب للاستطلاع والتعلم بطبيعته ويسعى للتعرف على البيئة المحيطة به وذلك من خلال نشاطات حسية يقوم بها بنفسه، أو مع مجموعة صغيرة بمساعدة الكبار وتوجيههم وتحفيزهم بطرق مختلفة. وأن الطفل ينمو بشكل متكامل من النواحي المختلفة الجسدية والعاطفية والاجتماعية والذهنية واللغوية.

وتؤكد أبحاث الدماغ الحديثة أن الطفل يولد مكتمل الأعضاء بوظائفها المحددة باستثناء الدماغ ، الذي يحدد قدرات الأطفال على التفكير والتعلم. فالدماغ يبدأ مع الولادة عملية تكوُّن جديدة، وذلك من خلال تفاعله مع البيئة المحيطة .بحيث تستجيب أعصاب الدماغ للمثيرات والخبرات التي يتعرض لها الطفل منذ ولادته. وتأخذ هذه الاستجابة شكل مسات كهربائية تربط وتشبك بين أعصاب وخلايا الدماغ التي تحمل الوظائف المختلفة وبذلك يتم تثبيت وظائفها. وقد وصف العلماء عملية التشبيك هذه " برقصة " تجاوب الدماغ مع البيئة . لذا فإن كمية الخبرات هذه ونوعيتها ومدى غناها تحدد مدى نمو قدرات الطفل واتجاهها. فبقدر ما تتعرض الخلايا إلى مثيرات وخبرات بقدر ما تتشابك وتتثبت وبالتالي تنمو قدرات الطفل.

ومن هنا فإن للبيئة الثقافية والتعليمية التي يحيا فيها الطفل تأثير مباشر في تكوين معالم شخصيته وهويتها الثقافية والفردية. فالطفل في بيئة فقيرة وأهل غير متعلمين لا تتاح له الفرص كي يتعرض لخبرات بنفس الكمية والنوعية التي يتعرض لها طفل في بيئة غنية ومتعلمة. وبالتالي لا تنمو قدراته الذهنية ولا قدرته على التعلم بنفس الكمية والنوعية التي تنمو فيها قدرات الطفل في البيئة الأخيرة، وينطبق الأمر نفسه على طفل في القرية البعيدة وآخر في وسط المدينة. كما أن طفل فرنسي في باريس يتعرض لخبرات تختلف من حيث الكم والنوع عن طفل روسي في موسكو وياباني في طوكيو. حيث تؤثر هذه الخبرات في نمو قدرات ذهنية واجتماعية وجسدية معينة ترتبط بثقافة ولغة المجتمع المحيط، وبالتالي تنمو هوية الطفل الثقافية بشكل مختلف في كل من تلك البلدان.

وتبين هذه الأبحاث أن العامل البيئي الأكثر أهمية في التأثير الإيجابي على عملية التشبيك أوالتعلم هذه هو الأمان العاطفي، والذي توفره للطفل منذ ولادته علاقته الحسية بأمه وأبيه والتصاقه بهما، وتركز بشكل خاص على أهمية الخبرة اللغوية التي ترافق تلك العلاقة . فكل أغنية تغنيها الأم

لطفلها وكل قصة تقرأها له أو حديث يقوم به الأب مع طفلته وكل لعبة يلعبها معها تحفز أعصاب الدماغ وخلاياه على التشابك مما يضاعف من قدرات الطفل على التفكير والتعلم ،من ناحية وعلى التحكم بعواطفه من ناحية أخرى ،وبالتالي تعينه على مواجهة وتجاوز أي هزة تعترضه في حياته كما أنها تنمي ثقته بنفسه ، ثقة تشكل أساسا للتعلم. إن للغة أهمية كبرى في هذه العملية لاسيما اللغة الأم حيث يسمعها الطفل ويتفاعل في البدء، مع ألفاظها وإيقاعها ،دون أن يفهم معانيها . وتبدأ هذه العملية وهو بعد في رحم أمه . ومنذ الأيام الأولى لولادته يتمكن من التمييز بين أصوات لغته الأم وأصوات لغات أخرى. بل يبدأ عملية التعلم بتشابك خلايا الدماغ منذ ما قبل ولادته . ويبني على أساسها معرفته ويكتسب قيمه وينمي مهاراته وبالتالي تتكون هويته.

فالأطفال إذاً متعلمون نشطون، حيث أنهم يستقون من خبراتهم الاجتماعية والحسية المباشرة وكذلك من المعارف التي تنقل إليهم ثقافياً ما يجعلهم يقومون ببناء مفاهيمهم حول العالم من حولهم. فطوال مرحلة الطفولة يقوم الطفل بعمليات مستمرة لاستيعاب الخبرات الجديدة، حيث يعيد تشكيل بنيانه العقلي ويوسعه.

وتتضمن عملية التعلم إحدى مهمات الدماغ وهي البحث عن معنى وتنظيم وتصنيف للمعلومات .فالدماغ في سعي دائم لتكوين معنى من المفاهيم والمعلومات التي يتعرض لها في خبرته وذلك حتى يحفظها في ذاكرته الطويلة الأمد.

وتؤكد هذه الأبحاث بأن الطفل يتعلم أكثر عندما يواجه تحدياً يحفزه، وعندما يتعرض لتغذية راجعة مع نفسه ورفاقه والكبار من حوله. وأنه يتعلم عندما يخوض خبرة مباشرة كفرد ومع مجموعة من الأطفال، تكون ذات معنى بالنسبة له ويمكنه أن يربطها بما يحمل من مفاهيم. وتتم في إطار عاطفي إيجابي يجعله يشعر بالأمان الذي يعزز ثقته بنفسه، وبالآخرين.

فإن الأطفال يتعلمون أفضل في طريقة جماعية حيث يشعرون بأنهم مقدرون ، وحيث يتم تأمين حاجاتهم الجسدية ويشعرون بالأمان العاطفي والنفسي. بل إن نمو الأطفال في مختلف النواحي يتأثر بقدرتهم على إقامة علاقات إيجابية مع عدد محدود من الكبار والأطفال الآخرين والحفاظ عليها.

وتبين الأبحاث والتجارب التربوية أن إحدى أهم خصائص التعلم لدى الأطفال أنهم يتعلمون ويكتسبون المعرفة بطرق مختلفة، كما يعبرون عما يتعلموه أيضا بطرق مختلفة، فهناك أنواع ذكاء متعددة يختلف مستواها بين الأطفال مما ينعكس على تنوع طرق تعلمهم. كما يعبر الأطفال عن معارفهم أيضا بطرق مختلفة وبمساعدة المعلمة يمكن أن تكون عمليات التعبير عاملا مساعداً في تعميق وتحسين وتوسيع هذه المعارف.

فالتعلُم عملية شخصية تتم داخل الطفل نفسه ويتحكم بها بنفسه ، و للمعلم الأكثر كفاءة دور هام في هذه العملية. فالبراعم لا تتفتح وحدها وإنما تحتاج إلى الماء والهواء والتربة الملائمة والموسم المناسب.

وتؤكد نظريات النمو بأن الطفل ينمو بشكل متكامل من النواحي المختلفة (الجسدية والعاطفية والاجتماعية والذهنية واللغوية). وتؤثر كل ناحية منها على النواحي الأخرى. لذا من الصعب نمو الطفل الذهني وتعلمه مالم يتم تأمين حاجاته الجسدية ويشعر بالأمان العاطفي والنفسي.

وأن النمو عملية متدرجة تسير بشكل لولبي وعامودي متسلسل حيث تبنى كل مرحلة منها على المرحلة السابقة له متفاعلة مع البيئة المادية والثقافية المحيطة.

إلا أن لكل طفل فرادته التي تتشكل من قدراته الذاتية ونوعية الخبرات التي يخوضها في بيئته وكميتها.

وبناء على ذلك ينمو الطفل ويتعلم أكثر ضمن بيئته الأسرية والثقافية والاجتماعية. وعندما يشعر بالأمان وبأنه مقدر ومقدم، في جو يحترمه وينمي ثقته بنفسه، وبثقافته ولغته.

**ما دلالات هذا كله للتعليم المبكر:**

**لطرائق التعليم ولطبيعة المنهج ولدور المعلم وكذلك لدور الأهل؟**

**ونبدأ بطرائق التعليم**

إن طرق التعليم الأفضل تكون تلك التي تتناسب مع كيفية تعلم الطفل ونموه كما مر ونستنتج منها أنها الطرائق التي:

- تعتمد النشاطات المحسوسة التي يقوم بها الطفل في بيئة محفزة ومنها العمل في مشروع و التي تعتمد عمل الأطفال كمجموعات صغيرة
- والتي تتحدى عقل الطفل بوضعه أمام مسألة تحتاج حلاً أصعب قليلاً من مستواه ويمكنه حله بمساعدة وتؤمن التغذية الراجعة المباشرة
- تكثر من استخدام المحادثة والأسئلة المفتوحة
- توفر جواً من الأمان العاطفي دون أي نوع من أنواع التهديد لا سيما منها التقييم وإطلاق الأحكام، وعدم الاحترام.
- يعتبر اللعب أحد طرائق التعليم الفعالة في مرحلة الطفولة المبكرة

فاللعب له دور هام في عملية التعلم حيث يوفر فرصاً للإستكشاف والإختبار والتعامل مع المواد وهذه كلها ضرورية لبناء المعرفة من ناحية ولنمو التفكير الرمزي من ناحية أخرى. وخلال اللعب يختبر الطفل تعلمه وينقيه وذلك على ضوء التغذية الراجعة التي يتلقاها من البيئة المحيطة ومن الأشخاص المحيطين به، كباراً كانوا أم صغاراً، معلمين أوأهل أو رفاق. إن اللعب هو وسيلة هامة

لنمو الأطفال الاجتماعي والعاطفي والذهني، فاللعب يعطي الأطفال فرصا لفهم العالم، والتفاعل مع الآخرين والتعبير والسيطرة على مشاعرهم، وتنمية قدراتهم الرمزية، كما يعطي اللعب فرصة للكبار لرؤية نمو الأطفال ومدى تعلمهم.
يعتبر التعليم من خلال التماثل مع القدوة تعليماً فعّالاً لا سيما في مراحل التكوّن الأولى .

**ما دور المعلمين في عملية التعلم هذه؟**

البداية تكون في توفير جو آمن جسدياً ومادياً ومعنوياً واحترام الطفل كفرد وكعضو في مجموعة ثقافية تشكل أساساً للممارسة التعليمية، حيث يستطيع الطفل التعبير عن آرائه ومشاعره بحرية وذلك بطرق مختلفة . فيربطون العاطفة الإيجابية بعملية التعلم. فالعاطفة هذه هي العامل المنسي دوماً في العملية التعليمية وذلك لغيابها عن أذهان المعلمين حتى في هذه المرحلة العمرية.
ويكون دور المعلم/ المعلمة في العملية التعليمية في هذه المرحلة دور المنظم والموجه للنشاطات والوسائل والوقت وكذلك دور المراقب والحافظ لما يقوم به الطفل، حيث تستخدمه لقياس مدى نموه وتعلمه. وعملية القياس والتقييم هذه تتم بشكل مستمر وباستخدام أدوات ووسائل مختلفة، منها تدوين الملاحظات والحادثة، وجمع الإنتاج وتسجيل جداول القياس. تستخدم المعلمة نتائج هذا التقييم لتعزيز نمو الطفل وتعلمه. وكذلك لتقييم وسائلها وبرامجها لتطويرها لتتلاءم مع الأطفال من أجل نمو وتعلم أفضل. كما أن هذه العملية تقود المعلمة لاكتشاف الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة وإيلائهم العناية الملائمة. ويتم ذلك باستخدام برامج التدخل المبكر يقوم به عادة أخصائيون والذي مالم يتم في هذه المرحلة يصبح تأثيره محدوداً جداً.
لما كان للعلاقة مع الراشدين دور حاسم في نمو الأطفال الذهني و الاجتماعي والعاطفي، واللغوي. ولما كان الأطفال في الوقت نفسه بنائين نشطين لمعرفتهم وادارة خبراتهم التعليمية. فان معلمي مرحلة التعليم المبكر يسعون لتحقيق التوازن بين التعلم الذي يبادر إليه الطفل ذاتيا، وتوجيه ودعم الراشدين. فيستخدم المعلمون معلومات حول الأطفال عامة وأطفال صفهم خاصة في تحديد نشاطات ومواد وخبرات تعليمية متنوعة تتناسب مع الأطفال كمجموعة والأطفال كأفراد.
يحترم المعلمون الأطفال ويقدرونهم ويقبلونهم ويتعاملون معهم بثقة ويحافظون على كرامتهم في كافة الأوقات. ويجعلون من أولوياتهم معرفة كل طفل كفرد، فيتبنون موقفا إيجابيا منهم بتعزيز نموهم، ويراقبونهم أثناء عملهم، ويقيمون علاقات مع أهلهم، ويتحفزون لأي إشارة تدل على حوادث ضاغطة على الأطفال للتخفيف من آثارها. والمعلمون مسؤولون في كل الأوقات عن الأطفال خلال وجودهم معهم.

يوفر المعلمون بيئة تربوية محفزة ذهنيا، تحوي وسائل تربوية متنوعة ومتعددة، غنية باللغة لتشجيع نمو وتعلم كل طفل ومن النواحي المختلفة. وتسعى لتجديدها بشكل مستمر.
يستخدم المعلمون ويطورون استراتيجيات متعددة لتدعيم تعلم ونمو الأطفال: كطرح أسئلة ومسائل، وتوفير خبرات جديدة مركبة فيها تحد، وتوجيه مباشر لاكتساب مهارات معينة، وتوفير وسائل لتدعيم التعلم/ سقالة لجعل الأطفال ينجحون في مهمة بمساعدة ومن ثم يستقلون. ولتعزيز فهم الأطفال للمفاهيم يستخدمون استراتيجيات متعددة تجعل الأطفال يفكرون ويزورون خبراتهم التربوية، الأمر الذي يعمق فهمهم لتلك الخبرات.
يسهل المعلمون نمو حس المسؤولية والتنظيم الذاتي للأطفال كما يشجعونهم على أن يقوموا بتجارب العمل معا وأن يعملوا كمجموعة.
ويجهدون في ربط كل مادة أو مفهوم جديد بمعرفة سابقة موجودة عند الأطفال. والتركيز على العمليات الذهنية وليس فقط على النتائج. فيكثرون من استخدام أسئلة مفتوحة

صحيح أن الأطفال ينمون ويتعلمون بشكل متسلسل من البسيط إلى الأكثر تركيباً، ومن الحسي إلى الرمزي. ويتقدم نموهم عندما تتوفر لهم فرصاً للتدرب على مهارات تم اكتسابها حديثاَ وكذلك عندما يخوضون خبرة تشكل تحديا أعلى قليلا من مستوى تمكنهم الحالي. وفي هذه الحالة فإن الراشد أو أحد الأقران الكفوئين يساهم بشكل متميز في تقدم عملية النمو. وذلك من خلال توفيرهم السقالة الداعمة التي تسمح للطفل بأن يأخذ الخطوة التالية بنجاح. فالمبدأ التربوي هنا أن الأطفال يمكن أن يقوموا بأعمال بمساعدة كخطوة أولى ومن ثم يقومون بها باستقلالية. حيث أن الطفل في أي مرحلة كان، تقع قدراته في منطقة من النمو لها حدودها الدنيا التي يقوم فيها الطفل بنفسه وبشكل مستقل ومداها الأقصى الذي يقوم فيها الطفل بمساعدة الكبار. ويسميها عالم النفس فايجويتسكي *نطاق مدى النمو* (*Zone of Proximal Development*) . مما يجعل عملية التعلم تسبق النمو إذا ما تمت ضمن هذا النطاق.
فدور المعلم في هذه العملية إذاً دور أساسي كما للأهل أيضاً والبيئة المحيطة بالطفل وما توفره من موارد وإمكانيات. فالمعلم يدعم، يوجه، ويسهل النمو والتعلم، بل ويقوم بتوفير السقالة ليرفع مستوى أداء الطفل ضمن نطاق مدى النمو.
وليقوم المعلم بهذه العملية بشكل فعال عليه أن يحب عمله أولاً ويؤمن بقدرته على التأثير وعمل فارق في حياة الطفل. كما عليه أن يتعامل مع الطفل باحترام وأن يثق بقدراته ويعزز ثقته بنفسه.
الأمر الذي يتطلب معرفة وافية بخصائص الأطفال وقدراتهم بشكل عام في هذه الفئة العمرية وضمن مجتمعهم والثقافة الخاصة بهم. كما يتطلب التعرف عن كثب على الأطفال كأفراد لهم

فرادتهم وميزاتهم واهتماماتهم وقدراتهم وأن يتابع قياس نموهم وتعلمهم بشكل مستمر ومن خلال عدة وسائل. كما على المعلم أن يكون قدوة للأطفال في حبّه للمعرفة ورغبته في التعلم.
وهذا يتطلب أن يتمكن المعلم من بناء جسور اتصال مفتوحة مع الأطفال بحيث يسألهم أسئلة بعد تفكير تحث الأطفال على التفكير بدورهم لإيجاد الإجابة وتجنب الأسئلة المغلقة ذات الإجابة الواحدة. فأسئلة كماذا لو، ماذا بعد، ماذا يمكن أن يكون هي التي تساعد على التفكير والتعلم. ولكن قبل ذلك من المهم أن يستبدل المعلم التكلم والشرح بالإصغاء. فالإصغاء للأطفال هو عنصر أساسي في صلب عملية التواصل التي تساعد في تعلم الأطفال ونموهم. وربما كانت هذه إحدى ميزات تجربة ريجيو اميليا والتي أذكرها لاحقاً. إن الإصغاء للأطفال يشكل وسيلة تعرفنا بتفكيرهم ومدى تعلمهم ومدى فهمهم للأشياء وهي التي تساعدنا على طرح الأسئلة المناسبة لتعزيز هذا الفهم وهذا التعلم. إن طرح المعلم للأسئلة وترويه في انتظار إجابة الأطفال يعطيهم الوقت الكافي حتى تتبلور لديهم الفكرة. ومن ثم فإن تفكير المعلم بدوره بروية في هذه الإجابات أو الردود ومن ثم الرد عليها بسؤال أكثر صعوبة بقليل يدفع عملية تفكير الأطفال خطوة أبعد. إن هذه العملية تجعل المعلم يوفر السقالة التي يشد بها الطفل إلى الأمام ضمن نطاق مدى النمو مستفيداً من المعلم كمورد وكمحفز في آن.
فالكبار المحيطين بالأطفال يشكلون بالنسبة لهم المورد والذاكرة التي تساهم في دفع الأطفال لتشدهم إلى الأمام وليس لدفعهم من الخلف. هذا هو المفهوم الحديث للعملية التربوية ولدور الكبار في تقدم تعلم الأطفال ونموهم. فعلى المعلم أن يكون مستعداً للاستمرار بالتعلم حتى مع الأطفال.
كما يستخدم المعلم ويطور استراتيجيات متعددة لتدعيم تعلم ونمو الأطفال: كطرح أسئلة ومسائل، وتوفير خبرات جديدة مركبة فيها تحد، وتوجيه مباشر لاكتساب مهارات معينة، وتوفير وسائل لتدعيم التعلم/ سقالة لجعل الأطفال ينجحون في مهمة بمساعدة ومن ثم يستقلون. ولتعزيز فهم الأطفال للمفاهيم يستخدم المعلم استراتيجيات متعددة تجعل الأطفال يفكرون ويزورون خبراتهم التربوية. كما يسهل المعلم نمو حس المسؤولية والتنظيم الذاتي للأطفال.

للقيام بهذه المهمات فإن **إعداد المعلمين** وتدريبهم المستمر أثناء الخدمة يعتبر من ركائز التوجهات الجديدة في مرحلة رياض الأطفال. حيث يعتبر مستوى الإعداد الأفضل هو الجامعي والذي لايقل عن الثلاث سنوات بعد إنهاء المرحلة الثانوية. كما يعتبر البرنامج الأفضل لإعداد المعلم الكفوء هو الذي يشمل معرفة بالطفل وخصائص نموه وكيفية تعلمه، ومعرفة بالنظريات والمبادئ التربوية وبطرائق التعليم وتقنياته، وبالتالي تنمية المهارات اللازمة لذلك. وكذلك معرفة ثقافية واسعة تتضمن اللغة الأم و اللغة الأجنبية ومعرفة بالمواد التعليمية والمنهج المتداخل، بالإضافة إلى تنمية

وتهيئة مهنية.ولا تقتصر عملية الإعداد والتدريب على المعلمين في رياض الأطفال وانما تشمل أيضاً المشرفين، ومعدي البرامج، والأخصائيين في المجالات المختلفة لهذه المرحلة. وهذا ما تفتقده برامج التخصصات الجامعية في بلادنا حيث التركيز على النظرياتالكلاسيكية وليس الحديثة منها. ويغيب الجانب العملي في معظمها.

**ونأتي إلى الدلالات بالنسبة للمنهج؟**

لما كان التعليم يهدف إلى تنمية قدرات الطفل ومعلوماته ومواقفه لتتلاءم مع التقدم العلمي والتقني من ناحية وإلى تنمية هويته الثقافية ليصبح عضواً فاعلاً في مجتمعه من ناحية أخرى .

تتوجه سياسات التعليم للأطفال أينما كانوا باعتبار التعليم حقهم على أساس تكافؤ الفرص .

لذا فإن البرامج والمناهج التربوية الأفضل هي تلك التي تتصف بالشمولية والتداخل بين المواد التعليمية ،مما يساعد الأطفال على القيام بترابطات ذات معنى كما يوفر فرصا أفضل لنمو المفاهيم. ويمكن التركيز على مادة واحدة في بعض الأوقات. إلا أنها تشمل كافة المواد، كاللغة والرياضيات والعلوم الاجتماعية والعلوم والفن والموسيقى والرياضة والصحة. و تتوجه للطفل ككل لتنميته من النواحي المختلفة الجسدية والحسية الحركية، والعاطفية والاجتماعية والذهنية واللغوية. بحيث يكون الطفل هو محور العملية التعليمية. فيتعلم من خلال نشاطات تشكل خبرات تعلمية، مختلفة يقوم بها كفرد ومع مجموعة من الأطفال مستخدما وسائل تربوية متنوعة منظمة في بيئة تربوية غنية.

ويستقى مضمون البرنامج من البيئة الثقافية للطفل كما يوفر مضموناً واسعاً اد يكون مناسباً اجتماعيا، محفزاً ذهنيا وذا معنى شخصي للأطفال.

وتستخدم فيه اللغة الأم مع تعريض للغة ثانية قبل السادسة من العمر. وتبقى بعض القضايا مثاراً للجدل بين الدول لاسيما تلك المتعلقة بالقراءة والكتابة. ومتى يبدأ تعليمها وكيف.

. يبني المنهج على ما يعرفه ويقدر أن يفعله الأطفال لتعزيز اكتسابهم مهارات ومعارف جديدة. وتتداخل التكنولوجيا فيها وتتنوع طرق عرض المنهج فتشمل أكثر من طريقة وهي أكثر تركيبا مما كان يعتقد في الماضي.

فلم يعد هناك إما هذه الطريقة أو تلك وإنما الاثنين معا، فالإنسان لا يحتاج ليعيش إما للماء أو الطعام، وإنما للإثنين معا.

مثال على ذلك:

- يبني الأطفال بأنفسهم فهمهم للمفاهيم كما يستفيدون من شرح آخرين كبارا أو أقران أكثر كفاءة .

- يستفيد الأطفال من الفرص لرؤية الترابطات بين المواد في منهج متداخل كما من فرص الغوص بعمق في مادة واحدة .
- يستفيد الأطفال من بيئة منظمة وروتين كما من مرونة المعلمة وعفويتها في التجاوب مع آراء وحاجات واهتمامات طارئة.
- يستفيد الأطفال من الفرص للعمل مع أطفال آخرين كما من العمل وحدهم والتعامل معهم كأفراد.
- يستفيد الأطفال من اللعب الذي يبادرون إليه ذاتيا كما من نشاطات ومشاريع وخبرات تخطط لها وتنظمها المعلمة.

ونأتي إلى السؤال الأخير في هذه المداخلة: **ما هو دور الأهل في كل هذا؟**

إن أحد أهم التوجهات الحديثة في التعليم هو تمتين **علاقة المدرسة مع الأهل** واشراكهم في العملية التعليمية. فالعلاقة بين المعلمة والأهل هي علاقة تبادلية وليست علاقة من جهة واحدة بحيث تتبادل المعلمة والأهل المعلومات التعليمية وتتشارك في النشاطات التعليمية والاجتماعية المختلفة التي تقوم بها المدرسة أو التي يمكن أن تتابعها الأم أو الأب في البيت وذلك بهدف تعزيز تعلم الطفل ونموه. ولما كان هناك تفاوت بين الأهل من حيث إمكانياتهم وتعلمهم ومعارفهم بالنسبة للطفل. فهناك توجه جديد لوضع برامج خاصة بالأهل تقوم بها المدرسة بالتعاون مع مؤسسات حكومية وغير حكومية ودولية من أجل تعريفهم بعوامل نمو أطفالهم وخصائصه ودور الأهل في المساهمة في تنميته. وذلك حتى يصبح البيت مكمل للمدرسة في تحفيز الأطفال على النمو والتعلم.

إن علاقة المعلمين مع الأهل هي علاقة مشاركة، تتطلب الاحترام المتبادل والتعاون والمشاركة في تحمل المسؤولية والمفاوضة حول الصراعات، لتحقيق الأهداف المشتركة. لذا فالمعلمون ينسجون علاقات مستمرة منظمة مع الأهل. ويؤسسون لعملية تواصل تسير في خطين. كما يشارك الأهل في قرارات متعلقة بالبرنامج. وبينما يراعي المعلمون آراء الأهل واهتماماتهم، فانهم في الوقت نفسه يحافظون على مسؤوليتهم المهنية تجاه الأطفال. يتشارك الأهل في المعلومات حول الأطفال، وبذلك يشرك الأهل في عملية قياس النمو والتعلم.
ومن المهم للمعلم إدراك أهمية الأهل في تحفيز أطفاله على التعلم وتعزيز نموهم. القراءة كعملية تربوية ممتعة للأم والطفل معاً. فالقراءة للطفل عملية ضرورية منذ الأشهر الأولى لولادة الطفل. ولذلك أسباب كثيرة منها نمو الدماغ واعتياد الطفل على الكتاب وفهم اللغة كرموز. فالأطفال

والأهالي والتربويون هم ثلاث شركاء في العملية التعليمية، التي تدور ضمن بيئة المدرسة، والتي تشكل بدورها جزءاً من البيئة الأوسع، المجتمع ككل. وربما كان أحد أهم أهداف المدرسة بشكل عام، مساعدة الأطفال على استكشاف بيئتهم ومجتمعهم والتعرف عليه،آملين أن يسهموا في بنائه.

ونتطلع إلى تجربة رائدة في هذا المجال تجري في بيئة إيطالية ومنطلقة من ثقافتها. في بلدة ريجيو اميليا في مقاطعة اميليا رومانا في شمال إيطاليا. فبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بدأت تجربة نوعية مميزة في رياض الأطفال، ما لبثت أن أصبحت ومع نهاية القرن إحدى ابرز التجارب في العالم. مما جعلها محط أنظار التربويين في الولايات المتحدة نفسها وفي العديد من دول العالم .فأجريت الدراسات، لبحث مكوناتها وأبعادها للاستفادة منها. كما أنشأت على ضوئها مدارس في محاولة لنقل التجربة. فماذا يميز هذه التجربة؟

ما يميز هذه التجربة بالنسبة لنا هو تطبيقها المتكامل، وبتوليفة مبدعة ووعي كامل لعدد من النظريات التربوية الحديثة، برغم أنها تتمحور بشكل خاص حول نظرية فايجوتسكي البنائية الاجتماعية، وتأخذ الكثير من بياجيه لاسيما في تعلُّم الرياضيات. كما يمكننا أن نتلمس فيها مما يمكن أن نعتبره تطبيقات للدلائل التي استنبطها التربويون من أبحاث الدماغ الجديدة حول نمو الطفل وكيفية تعلمه، رغم أنها نشأت في عقود سابقة لهذه الأبحاث. فهذه التجربة تعتمد بشكل أساسي على طريقة المشروع، حيث يختار الأطفال أو المربين موضوعاً معيناً، يمكن أن يكون صغيرا أو كبيرا، ورقة شجر أم متحف المدينة، ويقومون بجمع المعلومات عنه من مصادر مختلفة، مكتوبة ومصورة، وفي خبرات عملية يخوضونها ومنها زيارات يقومون بها لموضوع مشروعهم، وينظمون هذه المعلومات، ومن ثم يعبرون عما تعلموه بلغاتهم المختلفة، الشفهية والفنية، معتمدين مواد وأدوات متنوعة. ويساعد المعلمون والمربون الأطفال في عملية الاستكشاف وفي تطوير ونمو مداركهم ومعارفهم من خلال عملية البحث هذه منطلقين من خبراتهم التي عبروا عنها بإنتاجهم وأعمالهم وأقوالهم واعتبار ذلك أساسا لبناء المعرفة. فالمشروع هو نوع من "المغامرة والبحث".

يعتبر تربويو ريجيو اميليا تنظيم البيئة التربوية من أهم أعمدة نظامهم التربوي، بما يكفله هذا التنظيم من تحقيق للأهداف وتعبير عن فلسفتها التربوية.

فالبيئة التربوية في مدارس ريجيو اميليا، تنظم بشكل يساعد على تحقيق أربعة أهداف.

أولاً، عملية التفاعل كطريقة للتعلم وذلك بين الأطفال للعمل كمجموعات صغيرة، كما تسهم في تفاعل المعلمة والأطفال مع الأهالي ومؤسسات البيئة، بتوفير المكان والمساحات الخاصة لذلك.

ثانياً، تشجيع التعبير بلغات مختلفة و تشمل اللغة والفنون بأنواعها واللعب التمثيلي وغيرها. لذا فان البيئة التربوية تؤمن ذلك من خلال توفير وسائل ومواد متنوعة توجد بكميات وافرة قي غرف الصف، وفي المشغل العام في المدرسة وكذلك في المشاغل المصغرة في الصفوف نفسها.

ثالثاً، تشجيع البحث والاستكشاف للمعلمة كما للأطفال. وذلك بتوفير الوسائل المتنوعة والأماكن المتعددة لذلك.

رابعاً، التعبير عن الثقافة والبيئة الإيطالية بكل مكوناتها واعتبار البيئة المحيطة امتدادا لغرفة الصف بكل ما يوجد فيها. بل تتداخل وتتكامل معها.

ربما كان توثيق نشاطات الأطفال وإنتاجهم واستخدامه لتعزيز العملية التعلُّمية هي إحدى أبرز ميزات نظام ريجيو اميليا التربوي، حيث تستخدم في عملية التوثيق وسائل متعددة أهمها: الكاميرا التصويرية وكاميرا الفيديو وآلة التسجيل والكتابة. والأهم منها هو إنتاج الأطفال أنفسهم، والذي يعبرون فيه عن مفاهيمهم ومشاعرهم وبلغاتهم المختلفة كتابية وفنية.

يتم توثيق كافة نشاطات الأطفال، ، بدأ من انبثاق الفكرة إلى التحضير لها من قبل التربويين فالأطفال، بمراحلها المختلفة ومن ثم ما ينتج عنها.

وتستخدم الوثائق الناتجة عن هذه الوسائل لتعزيز التعلُّم والارتقاء به. فإن عرض المشاريع التي يقوم بها الأطفال بكل مراحلها على لوحات في المدرسة أو الصف، تساعد الأطفال في العودة إليها ليستعيدوا تلك المراحل ويفكرون بها بمشاركة زملائهم (أقرانهم) أو أهاليهم أو معلميهم لترسيخ فكرة أو تطويرها. كما يستخدم المعلمون والتربويون هذه الوثائق أيضا لمناقشتها واستيعاب ما فهمه الأطفال وما عجزوا عن فهمه وإيجاد السبل لمساندتهم في التوصل إلى فهمه. وبالنسبة للمعلمين والتربويين إن هذه الوثائق تشكل مادة بحثية لتطوير مفاهيمهم وإفادة غيرهم لكيفية تعلُّم الأطفال، بشكل أفضل .

أما أهالي الأطفال فهم أعضاء في المجالس الاستشارية، لكل مدرسة، إلا أن دورهم يتعدى ذلك، إذ أن لديهم فرص كثيرة منظمة للمشاركة الفعالة في عمل المدارس وذلك بأشكال مختلفة تتم خلال العام، فتشمل اجتماعات خاصة بأطفالهم و على مستوى الصف فالمدرسة ككل، بالإضافة إلى مشركتهم بكافة نشاطات الأطفال من المشاريع الى الرحلات فالتحضير للمناسبات والاحتفالات.

فالأطفال والأهالي والتربويون هم ثلاث شركاء في العملية التعليمية، التي تدور ضمن بيئة المدرسة، والتي تشكل بدورها جزا من البيئة الأوسع، المجتمع الإيطالي. وتهدف المدرسة إلى تعريف الأطفال عليه للمشاركة في بنائه.

ربما كانت تجربة ريجيو اميليا تتميز قبل كل شيء كونها تجربة إيطالية إلا أنها تشكل نموذجا لنوعية متقدمة من التعليم، يسعى لتكوين أفراد / مواطنين نامي القدرات ومنتمين لمجتمعهم . إنها تجربة تهدف إلى تنمية أطفال مستقلين في التفكير متفاعلين مع الآخرين في الوقت نفسه، أطفال مبدعين ومتمكنين من تقنيات التعبير في آن. أنها تجربة للأطفال فيها الدور الأكبر وللمعلم الدور الحاسم المساند، السقالة. إنها تجربة تنطلق من مبادئ تربوية تستند إلى أحدث النظريات العلمية ولكنها تستقي منها ما تعتبره مناسبا لأطفالها في بيئتهم الإيطالية. انها تجربة تربوية ، وطنية متفاعلة مع مجتمعها بشكل كلي. ومن هنا جاءت أهميتها كنموذج متقدم في هذا العصر يمكن لأي مجتمع أن يستعين فيها، وانطلاقا من مبادئها، ما يتناسب معه.

يشبّه التربوي الإيطالي لوريس مالاجوزي، مؤسس تجربة ريجيو إميليا الرائدة في التعليم المبكر، عملية التعلم وبالتالي العلاقة بين الطفل والمعلم بلعبة كرة الطاولة (بينغ بونغ). وتتصف هذه العملية بالتفاعل بين طفل /لاعب كفؤء ومعلم/لاعب أكثر كفاءة. فلتنجح اللعبة على المعلم أن يكون ماهراً في صد ضربات الطفل للطابة من أي زاوية أتت وبأي قوة اندفعت. وليتمكن المعلم من ذلك عليه أن يعرف مكامن القوة كما الضعف في شريكه، ويدرس ردوده، ليرد ضرباته بدقة وفعالية. والهدف ليس غلبته وإنما إبقائه مستمتعاً متحفزاً للتعلم أكثر ولتنمو مهاراته ليلعب بشكل أفضل. وربما كان من أصعب مهمات المعلم تتمثل في إبقاء زخم اللعب مستمراً لفترة طويلة كافية لتحقيق هذه الأهداف. مما يتطلب منه ابتكار طرائق متعددة للإبقاء على حيوية اللعب والرغبة في استمرارها. مقابل ذلك فإن نجاح اللعبة يتطلب رغبة واستعداداً لدى الطفل للتعلُّم. الأمر الذي يتوفر في الأطفال منذ الولادة.
بكل الأحوال فهذه اللعبة بطبيعتها تتطلب لاعبيْن متفاعليْن لتتم، فلاعب واحد لا يستطيع أن يقوم بها وحده. ويوضح مالاجوزي أن تعلم الأطفال لا يتم بشكل أوتوماتيكي كنتيجة لما يتعلمون وإنما بجزء كبير منه هو من فعل الأطفال أنفسهم كنتيجة للخبرات التي يخوضونها من ناحية وللموارد التي نوفرها لهم والفرص التي نتيحها لهم من ناحية أخرى.

الأطفال باحثون صغار ومتعلمون كبار، قادرون إذا ما توفرت لهم الفرصة على القيام بمهام تفوق توقعاتنا، فعلينا قبل كل شيء محبتهم وعدم الإستخفاف بقدراتهم بل توفير الموارد والسقالة، حتى يصبحون قادرين على بناء مجتمع عربي أفضل.

- إبراهيم اليازجي، **أبحاث لغوية**، إعداد وتحقيق يوسف قزما خوري، دار الحمراء، بيروت، 1990.
- محمد عابد الجابري، "الثقافة العربية والاستقلال الثقافي"، **المستقبل العربي**، بيروت، عدد 174، تاريخ آب 1993.
- J. A. Causen, **Socialization and Society**, Little, Brown and Company, Boston, 1968.
- Michael Cole and Sylvia Scribner, **Culture and Thought**, a Psychological Introduction, John Wiley and Sons, Inc., New York, 1974.
- Emile Durkheim, **Moral Education**, Translated by Everett Wilson and Hermann Schuner, The Free Press, New York, 1973.
- Eric Fromm, "Psychoanalytic Characterology and its Applications to the Understanding of Culture", in S.S. Sargent ed., **Culture and Personality**, Viking Fund, W.C. New York, 1949.
- Henry Hoijer, "The Relation of Language to Culture", in A.I. Kroeber ed., **Anthropology Today**, The University of Chicago Press, Chicago, Illinois, 1953.
- Eric Jensen, **Teaching with the Brain in Mind**, Association for Supervision and Curriculum Development, Alexandria, Virginia, 1998.
- Ralph Linton, **The Cultural Background of Personality**, Appelton Crofts, New York, 1945.
- Margaret Mead**, Culture and Commitment**, National History Press, Doubleday and Company, Inc., Garden City, New York, 1956.
- George Herbert Mead, **Mind, Self and Society; from the Standpoint of a Social Behaviorist,** The University of Chicago Press, Chicago, Illinois, 1934.
- Talcott Parsons, "The School Class as a Social System: Some of its Functions in American Society", reprinted in Hasley and others eds., **Education, Economy and Society,** The Free Press of Glencoe, Inc., Forth Printing, 1964.
- Webb B. Rodman and Sherman R. Roberts**, Schooling and Society**, Second Edition, Macmillan Publishing Company, New York and Collier Macmillan Publishers, London, 1983.

- Edward Sapir, **Culture, Language and Personality**, selected, edited by David G. Mandelbaun, University of California Press, Berkeley and Los Angelos, 1961.
- George Spindler, **Education and Culture, Anthropological Approach**, Holt, Rinehart and Winston, New York, Chicago, 1963.
- Edward B. Tylor, **Primitive Culture**, Researches into the Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language Arts and Customs, Brentono's, New York, 1924.
- Lev S. Vygotsky, **Thought and Language**, M.I.T. Press, Massachusetts Institute of Technology and John Wiley and Sons, Inc., New York and London, 1982.